

تاريخ القبول: 2018/12/14

تاريخ الإرسال: 2018/10/08

## العولمة وسؤال التناف

## Globalization and the question of acculturation

د. مسعود لبيوض

mbeulabied@gmail.com

جامعة الجزائر 2 (قسم الفلسفة - كلية العلوم الانسانية)

مَلِكُ حَيْضِ الْبَيْتِ

الحديث عن العولمة حديث عن قضية شائكة، فقد انقسمت في تقييمها الآراء ووجهات النظر، وتعددت زوايا النظر والاشتغال، ومن الجلي أنها ترتبط بقضايا أخرى كثيرة كقضايا التراث، الهوية، الثقافة، الدولة، الحدود.. ويهدف هذا المقال إلى الإحاطة بتأثيرات العولمة وتداعياتها على الجانب الثقافي وعلى مسألة الهوية، من أجل فهم كيفية التعاطي مع الظاهرة.

الكلمات الدالة: العولمة، الثقافة، التناف، الهوية، الخصوصية.

### Abstract:

In fact, the subject of the globalization is a thorny one. Many visions and opinions have diversified on it, several angles of vision have obviously emerged. And it is clear that it will impact on such themes: the heritage, the identity, culture, state, borders .... the purpose of this article is to clarify the influences and the impact of globalization on the culture and the question of identity, as well as the understanding of quality that one must behave with.

Key words: Globalization, culture, acculturation, identity, particularity.



## مقدمة:

العولمة قضية معقدة وشائكة، والجدل حولها يكاد لا ينتهي، لأنّ الحديث عنها يحمل في ثناياه قضايا كثيرة تتقاطع وتتداخل معها بطريقة عضوية أحيانا، وبشكل غير مباشر أحيانا أخرى؛ إنّها قضايا التراث، الهوية، العالمية، الدولة، الحدود، الأمة، الحداثة، الآخر، الثقافة، الايدولوجيا، الحضارة، المركزية، الغزو الثقافي، القيم، الأنا، التقليد..

وليس بخافٍ أنّ الإحاطة بهذه القضايا لن تكون مجديّة ما لم يتمّ وضعها وتصنيفها في القطاعات التي تنتمي إليها من جهة، ثمّ توضيح المقصود منها وتمييز بعضها عن بعض من جهة أخرى، إذ من الجليّ أنّ العولمة تظهر في تجليات كثيرة تمتدّ إلى قطاعات متعدّدة أهمّها السياسة والاقتصاد والثقافة والايديولوجيا والتكنولوجيا..

ونجد أنفسنا منذ البداية أمام تساؤلات ملحة وذات أهمية بالغة ينبغي التصدي لبحثها، من أبرزها: هل نملك حقّ الاختيار بين تبنيّ العولمة أو رفضها؟ أعني هل يمكن الحديث عن رفض أو مواجهة العولمة في بداية القرن الواحد والعشرين إذا ثبت أنها تضرّ بمصالحنا وتمسّ شخصيتنا؟ أو بتعبير آخر هل العولمة حتمية أفرزها دخول الرأسمالية كمنظومة عالمية في مرحلة جديدة من مراحل تطورها، أم إنّها ظاهرة تاريخية معرّضة للزوال والاضمحلال؟ وينسحب هذا التساؤل على البعد الثقافي: هل يمكن الحديث عن ثقافة عالمية أو عن عولمة للثقافة؟ وما مصير الثقافات المحلية في هذا الواقع الجديد؟ إننا نعتقد أنّ الإجابة عن هذه التساؤلات تحمل الأولوية لأنّها مفتاح ضروري يوضّح كيفية التعامل مع الظاهرة، لكن قبل ذلك لا بد من النظر في مصطلح العولمة.

## أولا: هل العولمة ظاهرة جديدة؟

يعود استخدام مصطلح "العولمة"، وهو ترجمة لكلمة "Mondialisation" الفرنسية، أو "Globalisation" الانجليزية، إلى أوائل التسعينات في مجال المال والتجارة والاقتصاد للتعبير عن ظاهرة تتعشّى باستمرار في زمان معين. وهو من

المصطلحات التي اتسع نطاق استخدامها بسرعة فائقة في السنوات الماضية، ولم يلبث أن صار يحمل دلالات أخرى استراتيجية وثقافية.. وأضحى مادة خصبة يستخدمها الكاتب والسياسي والإعلامي وعالم الاجتماع.. ولعلّ السبب في ذلك هو ارتباطه بتغيّرات عميقة ومتسارعة يجتازها العالم..<sup>1</sup>

ولكن هل يُستخدم هذا المصطلح بمدلول واحد؟ ثمّة تعريفات كثيرة استعملت لبيان حقيقة الظاهرة، وقد تنوّعت من باحث إلى آخر ومن مجال إلى مجال، ومع ذلك تلتقي التعريفات جميعها في تحديد المدلول النهائي للعولمة، فهي لغويا "اشتقاق من العلم ومن العالمية لكي نصل بعد ذلك إلى العولمة".<sup>2</sup>

ويشير محمد عابد الجابري إلى أنّ الصيغة الصرفية للعولمة تفيد أو تعني وضع الشيء على مستوى العالم، أو تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل؛<sup>3</sup> أي أنّ العولمة "استنادا إلى دلالتها الاشتقاقية بالذات لا تعني شيئا آخر سوى صيرورة العالم واحدا".<sup>4</sup>

ويمكن القول إنّ من أبرز مرامي العولمة هو سعيها لرفع مستوى التعاون الاقتصادي والتجاري بين أطراف المعمورة ككل، والقضاء على كلّ ما من شأنه إعاقة التبادلات بينها قصد الارتقاء بهذا التبادل إلى أعلى مستوى ممكن. ولاشك أنّ هذا يشمل جميع السلع والبضائع والتكنولوجيا ورؤوس الأموال والعمالة والأنشطة والخدمات عبر حدود الدول، وهنا تؤدي الشركات متعدّدة الجنسيات دورا مفصليا ورائدا في عمليات التبادل التي لا تستثني أي شيء، من خلال توسيع أنشطتها والاتجاه نحو الاندماج والتكامل لخلق كيانات أوسع، ومن شأن هذا أن يُسهم في تدويل العلاقات الاقتصادية والثقافية خصوصا مع الدور النشط الذي تقوم به هيئات دولية معروفة، على رأسها صندوق النقد الدولي والمنظمة العالمية للتجارة والبنك الدولي. ومن الواضح أنّ تكنولوجيا العصر ونموّها بشكل متسارع في جميع مجالات الصناعة والاتصال والحياة عموما، قد قلّص المسافات بين الدّول والقارات، ممّا سمح بتزايد التأثير بين الأطراف الفاعلة المختلفة وبروز الطابع التنافسي بينها.<sup>5</sup>

غير أنّ كثرة الحديث عن ظاهرة العولمة في أيامنا لا يعني أنّها ظاهرة جديدة، لأنّ الأحداث ووقائع التاريخ تثبت أنها تعود إلى قرون خلت، ولاشك أنّ الإنسانية قد لاحظت هذا النزوع نحو العولمة منذ مدّة ليست يسيرة، وخاصة منذ انبثاق الفتوحات العلمية والتكنولوجية الكبيرة؛ فالشعور أنّ العالم لم يعد بتلك الشساعة الرهيبة بل صار أقرب إلى قرية صغيرة كما يقال، كان موجودا عندما تمكن الأوروبيون من الوصول إلى القارة الأمريكية منذ خمسة قرون، أو منذ أبحرت أول سفينة بخارية منذ أقل قليلا من قرنين، أو عندما نظر رجل الفضاء لأول مرة إلى كوكب الأرض منذ ما يزيد عن نصف قرن. ومن الزاجح أن يعود رواج المصطلح وشيوع الحديث عن العولمة في السنوات الأخيرة راجعا إلى نموّها بمعدل متسارع ومتواصل<sup>6</sup>..

### ثانيا: آثار العولمة على الاجتماع والسياسة:

ومن الجلي أنّ العولمة لا تتموضع دون تأثير اجتماعي، بل إنّ لها انعكاسات خطيرة على جميع الأصعدة، من أبرزها تكريس التفاوت الرهيبي بين سكان المعمورة، والتأثير على النسيج الاجتماعي للدول وخاصة الفقيرة منها. ولاشك أنّ مظاهر وآفات مدّمة عرفت طريقها إلى مناطق واسعة في عالمنا، وهناك ميل قويّ لاعتبار العولمة الخلفية المباشرة لذلك؛ فمئات الملايين من الناس معرضون لسوء التغذية والمرض والجهل والجريمة، واتساع هذه المظاهر وتزايدها، حتى داخل الدول المتطورة في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية هو الذي جعل بعض الباحثين يستحدثون مصطلح "الإفقار العالمي" أو "عولمة الفقر"<sup>7</sup>، لأنّ التنافس الاقتصادي واندماج الشركات اللذين يتحكمان في النشاط الاقتصادي العالمي يعملان على تقليص وتركيز عدد الفاعلين الاقتصاديين، بحيث تتركز الثروة العالمية في أيدي أقلية من أصحاب الشركات متعددة الجنسيات هم السادة الفعليون للعالم الجديد عالم العولمة<sup>8</sup>؛ ذلك أنّ 172 شركة من أصل 200 من أكبر الشركات العالمية تتوزّع على خمس دول فقط هي الولايات المتحدة، فرنسا، بريطانيا، ألمانيا واليابان. كما أنّ المنطق الاقتصادي الذي يحكم اقتصاد العولمة المتخطي للحدود والحواجز بين الدول هو "إنتاج أكثر ما

يمكن من السلع والمصنوعات بأقل ما يمكن من العمل؛<sup>9</sup> أي إن تسريح العمال من مقتضيات المنافسة، يبين ذلك أنه في العقد الأخير من القرن الماضي عملت 500 شركة من أكبر الشركات العالمية على تسريح أربعمئة ألف مأجور في المتوسط كل سنة بالرغم من ارتفاع أرباحها بصورة مذهلة.<sup>10</sup> ولا يخفى على أحد أن ارتفاع البطالة وديمومتها يؤدي لا محالة إلى المظاهر التي سبق ذكرها أي الفقر والمرض والجهل إضافة إلى الجريمة وغيرها من الآفات.

أما على الصعيد السياسي، فإن من الثابت أن ظاهرة الاستعمار سابقا قد مارست منذ قرون تأثيرا قويا على أجزاء واسعة من العالم، وأكثر الأنماط الاستعمارية شراسة كانت توصل الضغط على الأقاليم الخاضعة لها سياسيا من أجل إخضاعها ثقافيا والتشويش على هويتها الحقيقية، واستبدالها بقيم مغايرة باستخدام أساليب متنوعة.<sup>11</sup> أما النظام الرأسمالي الذي اكتسح النظام الاشتراكي والأنظمة الاقتصادية المختلفة، فهو الآخر حامل لثقافة معينة، ولقيم ثقافية تأسس عليها، من أبرزها قيم وشعارات الليبرالية والحرية الفكرية والسياسية..

وفي المجال السياسي دائما، نجد بعض التأثير الإيجابي للعولمة، وهو ذلك النزوع نحو الديمقراطية ويتجلى أكثر في التزايد المستمر والكبير في درجة المشاركة السياسية للشعوب في تقرير مصيرها، عن طريق الانتخابات المباشرة أو من خلال التظاهر السلمي أو غير ذلك.. هذه الحرية التي تعتبر ركيزة النظام الديمقراطي الذي يراد له أن يكتسح العالم.<sup>12</sup> ومع ذلك لا ينبغي أن نتغافل هنا عن التدخلات السافرة للدول القويّة في شؤون الدول الأخرى تحت أعدار متنوعة منها حماية الأقليات والشعوب المستضعفة والضغط على الأنظمة التي تعتبرها استبدادية من أجل القيام بإصلاحات سياسية واعتماد النمط الديمقراطي الغربي، وقد انتشرت الشعارات التي تستخدم من أجل هذه الغايات ومنها "النظام الدولي الجديد" أو "الشرق الأوسط الكبير".. وكل هذا دون الاكتراث لسيادة الدول وحقها في التحكّم في أراضيها..

ومن القيم التي يراد عولمتها على غرار ما سبق يمكن الإشارة خصوصا إلى ما يعرف بـ"حقوق الإنسان". ولاشك أن الأقمار الصناعية ووسائل الإعلام والتواصل

الضخمة التي يمتلكها ويتحكم فيها الفاعلون الحقيقيون تعمل على تمييط هذه القيم وجعلها أكثر جاذبية؛ فمن الواضح أنّ المناداة إلى احترام حقوق الإنسان لا تحمل في طياتها أيّ إشكال، ولكن استغلال هذا الجانب للتدخل وإضعاف الدول القومية التي لا تتجاوب مع النظام العالمي المنشود هو الذي يثير الريبة. يُضاف إلى ذلك مسألة الالتزام الحقيقي والفعلي للدول الليبرالية القوية بمثل تلك الحقوق إذا تعلق الأمر بشعوب أخرى وبأمم مختلفة ثقافياً، وأكثر من ذلك تظهر من الخطابات الرسمية الدولية نوعاً من الانتهازية السياسية، فتعطي حجماً هاماً لهذه المسألة، وتؤكد على أنّ ترساناتها العسكرية موجودة في خدمة الأهداف الإنسانية تحت هذا الغطاء، وهذا من خلال مبدأ التدخل الدولي الإنساني<sup>13</sup> الذي تمنح الدول المهيمنة بموجبه الحق لنفسها في التدخل من أجل كبح جماح المؤسسات والأنظمة الاستبدادية وثنيها عن خرق حقوق مواطنيها..

### ثالثاً: الثقافة وآثار العولمة:

وقبل النظر في تفاعلات العولمة وإسقاطاتها على البعد الثقافي، يجدر بنا أن ننظر أولاً في مصطلح الثقافة وقبله مصطلح الثقافة، فنحن نجد أنفسنا أمام العشرات من التعريفات كلها تنظر إلى الثقافة بنظرة خاصة، لذلك ليس من السهل ضبط تعريف يحظى بإجماع الباحثين في الموضوع.

ولن نكثر هنا في عرض هذه التعريفات، بل نكتفي بالتعريف الذي صدر عن اليونسكو سنة 1982، حيث جاء فيه إنّ الثقافة "يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميّز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات."<sup>14</sup>

ويظهر من هذا التعريف النطاق الواسع الذي تشمله الثقافة، والمجالات المتعددة التي تطالها الخصوصية الثقافية. والواقع أنّه مهما كان التعريف الذي يأخذه مصطلح الثقافة، فإنّ من الواضح أنّ البشرية اليوم تجد نفسها أمام تنوّع صارخ في الثقافات، فلا مجال للحديث عن ثقافة واحدة بصيغة المفرد في منأى عمّا يحدث

خارجها، بل عن ثقافات متكثرة متباينة الأصول والقوميات، وإذا كانت وسائل الإعلام والتواصل قديما محدودة وغير ذات تأثير كبير في التمازج الثقافي، مما جعل فكرة الثقافة القومية هي هدف البشرية وسمتها النهائية، وهو الذي تجلى مع ظهور ما سمي بـ"عصبة الأمم" التي بُنيت على فكرة عالم يتكوّن من شعوب مستقلة يطبعها التجانس والحرية، فإننا اليوم، خاصّة بعد مخلفات الحرب العالمية الثانية، بظهور أنماط ثقافية جديدة على رأسها العقيدة الرأسمالية الأمريكية، وكذا الثقافة الأوروبية التي تأسست على فكرة "الوحدة في التنوع"<sup>15</sup>، وأمام تكاثر هذه الثقافات والتسارع المهول في الوسائل وشبكات المعلومات التي تسمح باحتكاك الثقافات بعضها مع بعض، صار من المستحيل تقريبا توقع ثقافة على نفسها وتحديد نطاق خاص بها، مما يحيلنا إلى مسألة التثاقف خاصّة في ظل ظاهرة العولمة.

ويبدو أنّ التثاقف (Acculturation) فعل محايد من التعارف والتواصل في إطار نسبية ثقافية الهدف منها تقادي الخلافات التي قد تتجرّ عن الجهل المتبادل، ممّا قد يؤدي إلى صراعات فكرية أو مواجهات بين الجماعات البشرية، وقد جاء في قاموس المعاني: "مثقفة(اسم) مثاقفة : مصدر ثاقف، مثاقفة(اسم)، اقتباس جماعة من ثقافة واحدة أو فرد، ثقافة جماعة أخرى أو فرد آخر، أو قيام فرد بمواءمة نفسه أو نفسها مع الأنماط الاجتماعية أو السلوكية والقيم والتقاليد السائدة في مجتمع آخر، وتساعد الترجمة والمثاقفة على معرفة الآخر"<sup>16</sup>.

وبهذا يكون التثاقف متعلقا باكتساب الفرد أو الجماعة ثقافة جديدة عدا ثقافته الأصلية، وهي ترتبط بشكل مباشر بمشكلة فلسفية أخرى هي مشكلة الغيرية (Altérité)، حيث تركز فيها اهتمام ممثلي الفلسفة الحديثة والمعاصرة على مساءلة العلاقة بين الذات والغير، أو "الأنا الآخر" وهذا على إثر التحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي عرفتها أوروبا. ومشكلة الغيرية في الحقيقة مشكلة قديمة ذات جذور متشعبة بمعناها المفهومي، بحيث ترتبط مفاهيم كثيرة بمشكلة التثاقف في الموروث الفلسفي اليوناني وأيضا في تراثنا الفلسفي العربي الإسلامي مثل مفهوم الذات، الآخر، الفقيه، الفيلسوف الخ.<sup>17</sup>

وفي الأوقات الراهنة تزايد عدد المؤسسات والجمعيات التي أخذت على عاتقها، من خلال الدراسات والمؤتمرات التي تعقد هنا وهناك، همّ تكريس التبادل الثقافي بين الأمم وتكريس الحوار بوصفه النهج الأنسب للتفاعل بين الأمم، وطريقة مثلى لا محيد عنها في تأسيس علاقات دولية متوازنة تُبعد العالم عن شبح الحروب المدمرة للكوكب. ومن الجليّ أنّ الشّعور بضرورة التواصل والحوار ما فتئ يتعاظم، وذلك راجع إلى أسباب موضوعية صار يدركها الجميع؛ إذ أضحى الفكر الإنساني، بعد الأحداث الخطيرة التي عرفها العالم في القرن الماضي، في مواجهة فرصة جديدة تدعوه بقوة إلى مراجعة شاملة لأدوات ومناهج تفكيره في الوقائع، وإقامة العلاقات بين البلدان والحضارات على أساس الحوار المرتكز على التوازن من أجل استتباب الأمن بين الشعوب. ورغم هذا لا بد أن نلاحظ أنّ ما يجري في عالمنا من أحداث يسير تماما في الاتجاه المعاكس لذلك "الوعي" بضرورة الحوار، إذ بدلا من عالم بينيه

<sup>18</sup> الحوار نجد أنفسنا أمام عالم تشكّله الحروب. هذا هو في الواقع ما ظلّ يحصل باستمرار؛ فنحن لا نضيف جديدا إذا قلنا إنّ الصّراع ميّر العلاقات الدولية في أحقاب تاريخية طويلة ومختلفة، ولكنّ الإشكال الذي يطرح نفسه علينا اليوم هو إن كان التصادم هو جوهر العلاقة بين الحضارات أم إنّ ثمة خيارات أخرى يمكن أن تحلّ محلّه. وقد اشتهر بالمناداة بالرأي الأول الأمريكي صامويل هنتنغتون S.Huntington الذي بحسب تنظيره يُعتبر التصادم هو المحرّك الجديد للتاريخ ابتداء من سقوط حائط برلين، بدلا للإيديولوجية التي كانت محرك التاريخ إبان الحرب الباردة. ولاشك أنّ "باراديجم" صراع الحضارات كما يصوّره المفكر الأمريكي مرتبط بجملة من المفاهيم الجديدة كإيديولوجية والثقافة والحضارة والحرب

الباردة الرأسمالية والليبرالية والاشتراكية وغيرها..<sup>19</sup>

ونتيجة الطّرح الذي قدّمه هذا المفكر الأمريكي احتدم النقاش حول ماهية العلاقة بين الأمم والحضارات، ومع هذا الاهتمام المتزايد الذي تزايد في السنوات الأخيرة لا بد من القول إنّ هذا المفهوم لم ينتشر عندنا ضمن مشروع عربي أو



إسلامي واضح، بل جاء أساسا كردّ فعل ضد مقولة "صدام الحضارات" التي رُوِّج لها هنتغتون في المقال الذي نشره عام 1993 في مجلة "الشؤون الخارجية" تحت العنوان نفسه The Clash of Civilisation والذي ركّز على أن الصّراعات المستقبلية لن تحدث لأسباب اقتصادية أو سياسية، بل ستفجر دفاعا عن قيم ثقافية مختلفة عن قيم الآخر. وأنّ حضارة العرب والمسلمين من أبرز الحضارات التي تحمل قيما خطيرة على حضارة الغرب.<sup>20</sup>

ولم تلق دعوة هنتغتون ترحيبا من قبل شريحة كبيرة من الباحثين، بل على العكس من ذلك انبرت أصوات عديدة لمناهضة أفكاره وربط مقولته باستراتيجية الامبريالية الجديدة التي تدافع عن الهيمنة الغربية الشاملة على مقدّرات الشعوب. ومن ثمّ الدّعوة للطرح المضاد، فتأسست من أجل ذلك معاهد ومؤسسات، ووُضعت دراسات لا حصر لها، يجمعها البحث عن سبل الالتقاء بين الشعوب. ومن هنا بدأ المفهوم العام للحوار والتواصل بين الحضارات والثقافات يتبلور ويعرف الزّواج المطلوب، بحيث يمكن القول إنّ الهدف من ذلك من حيث الجوهر كان هو التبادل السلمي للأفكار والآراء والمعلومات بين المنتميين إلى حضارات مختلفة لمعالجة موضوع أو الوصول إلى مبتغى موضوعي واضح؛ أو لنقل إنّ حوار الحضارات، الذي يمكن أن يضمّ أنواعا أخرى مثل حوار الثقافات والأديان واللغات، هو ضرب من الحوار "يتم بين الحضارات بتوسط المنتميين إليها سواء أكان على المستوى الفردي أو الاجتماعي، الشعبي أو الرسمي، وسواء أكان منظّمًا أو غير منظّم."<sup>21</sup>

بيد أنّ التبادل الثقافي أحيانا يأخذ شكلا ومنحى مختلفين، ذلك أنّ التثقاف يعني بالدرجة الأولى تمثّل فريق بشري لآخر بشكل كلي أو جزئي، وتأقلمه مع ثقافة أجنبية متصل بها، وهذا الانتقال في السمات الثقافية من حضارة إلى أخرى قد يودّد جملة من الآثار والتحوّلات في الأنماط الثقافية لأحد الأطراف أو لكليهما، وشعورا ذاتيا بالنقص والانسلاخ الثقافيّين. وقد استعمل الأنثروبولوجيون هذا المصطلح في دراسة الأوضاع الثقافية عند الشعوب المستعمرة، بينما ركّز علماء النفس على الجانب السلبي لعملية التثقاف وأثرها على الصحة النفسية الفردية والمجتمعية.

وتتجلى رهانات التثاقف على الأفراد والجماعات في مستويات عدّة، ويتعلق بميادين ثقافية كثيرة من أهمها الدين واللغة، حيث يؤدي في حالات معينة إلى ازدواجية ثقافية واضحة وإلى ضغط على صعيد الهوية، مثلما نلاحظ في ظاهرة الهجرة مثلا، فإذا كان المهاجرون البالغون يحافظون على طريقة تفكيرهم على الرغم من اكتسابهم لقيم ومعايير العمل والمجتمع الجديد الذي يعيشون فيه، فإنّ حال الأطفال تكون عادة مختلفة، فهم يكتسبون من خلال الأسرة والمدرسة والحياة الاجتماعية ثقافتين متباينتين في وقت واحد، نقصد الثقافة الأصلية التقليدية وثقافة المجتمع الجديد العصرية.<sup>22</sup>

وعادة ما تُطرح مشكلة الاتجاه الذي تأخذه عملية التثاقف، بمعنى أننا لا نكون أمام تبادل وتأثير ثقافي في الاتجاهين، بل أمام اكتساح ثقافة ما لثقافة أو ثقافات أخرى، وفي هذا الإطار طفا إلى السطح مصطلح "عولمة الثقافة"، الذي يشير إلى حركة المنتجات الثقافية على مستوى الكوكب،<sup>23</sup> فهذا المفهوم بعيد عما يعرف بثقافة الدولة القومية التي تؤكد التجانس والاندماج الثقافي، فلا بد فيه من تعريف أوسع للثقافة حيث يمكن الإشارة إلى عمليتي الاندماج والتكثيف الثقافي ليس على مستوى الدول فقط، بل على مستوى عابر للقوميات أو عابر للمجتمعات بحيث تكسب عمليات التبادل قدرا من الاستقلالية على مستوى عالمي دون أن ننظر إليها على أنها إضعاف لسيادة الدول.<sup>24</sup>

وقد أثار مصطلح "عولمة الثقافة" أو "الثقافة العالمية" ردود فعل متباينة، ففي حين يعد بعض الفاعلين، ومنهم مارشال ماك لوهان Marshal McLuhan بوكوب ديمقراطي توخّده ثقافة عالمية بحيث يأخذ في الأخير شكل قرية كونية، ينظر إليها آخرون على أنّها فقدان فادح للهوية، ومن هؤلاء من يذهب بعيدا في تأكيد خصوصيته إلى درجة اللجوء إلى العنف..<sup>25</sup>

ويمكن أن نفترض مع محمد عابد الجابري أن الدّعوة إلى العولمة "إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة، وجعله يشمل الكل".<sup>26</sup> وبما أنّ العولمة قد ظهرت في الولايات

المتحدة الأمريكية، فإنّ هذا يعني أن الثقافة الأمريكية هي التي يراد تبيئتها في باقي المجتمعات، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى استبدال مصطلح La Macdonaliation du monde على العولمة، نسبة إلى اسم المطاعم السريعة ماكدونالد الشهيرة التي اكتسحت العالم، وطبعاً ليس الأمر مقصوراً على ما قد نسميه "عولمة غذائية" بل يشمل أيضاً الأمور التي يشاهدها ويسمعها الشباب، وأيضاً طريقة اللباس وتصنيف الشعر.. ممّا يؤثر على السلوك والأخلاقيات والقيم، يقول محمود أمين العالم: "لقد امتدّت العولمة إلى كل شيء تطمس وتتمط وتوحّد، أفكارنا مشاعرنا، أحاسيسنا، ضمائرنا، قيمنا، أذواقنا، مشاربنا، مطاعمنا. أثوابنا، تطلعاتنا، مآسينا، منجزاتنا، مشاكلنا، انتصاراتنا، هزائمنا، كلماتنا عن الحب وطرقنا إلى الموت، وأصبح العالم كما يقولون بفخر واعتزاز، قرية كونية واحدة..<sup>27</sup>

بيد أنّ هذه النظرة التي ترى في العولمة ظاهرة سلبية وذات نتائج كارثية على الأفراد والمجتمعات وإن كانت رائجة فإنها ليست الوحيدة، فنحن، مثلما سبقت الإشارة، لا نجد تطابقاً في وجهات النظر حول الموضوع بين الباحثين في تأثيرات العولمة لاسيما على الجانب الثقافي، فمن المفارقات في نظر علي حرب مثلاً، أن يتعامل أصحاب المشاريع الثقافية عندنا، وهم الذين يدعون إلى التحديث والتحرير والتغيير، بطريقة السلب والنفي، فرأوا في العولمة مؤامرة كبرى، ورأوا فيها بحدائتها وفتوحاتها استباحة للقيم وغزوا للثقافات وأفخاخاً للهويات وتسلباً على المجتمعات، في حين أنّ الأمر يتعلق بالوقائع والأحداث ليس أكثر، وقائع علمية وتقنية، وتغير في نوعية السلع، حيث باتت ذات ماهية أثرية افتراضية وعليها يتوقف الإنتاج المعرفي والمادي، نقصد منتجات إلكترونية من الصور والنصوص والأرقام وما يضاهيها من علامات ضوئية سيالة متدفقة على مدار الساعة.<sup>28</sup>

إنّ العولمة من وجهة النظر ليست ظاهرة سلبية بل هي "فتح كوني"، غير العالم وبيوميات الإنسان وواقعه وعصره، من عصر المصانع والحقول أين كان يتعاطى مع الواقع عبر المصنوعات من السلع المادية أو النتاجات الذهنية من أساطير وعقائد، إلى عصر آخر، عصر الحاسوب، عصر المعطيات الاصطناعية

المتحكمة في الواقع ومعطياته، وعصر أنساق المعلومات وأنظمة الأرقام التي تجوب الفضاءات السبرانية..

العولمة إذن هي نظام في التفكير والعمل والبناء في إدارة الكلمات والأشياء، نظام المعلومة الذي غير وجه الحياة وفتح روابط جديدة بين البشر، فلم يعد في ظلها للأوصياء والوسطاء بين البشر وجود، فالمعلومة التي يتأسس عليها الواقع متاحة للجميع، وهذا هو بالضبط، في نظر علي حرب، ما يثير فزع المثقفين الذين يرون أنفسهم النخبة التي تمارس الوصاية على الهوية الثقافية وعلى المعرفة والحقيقة، ومن هنا نفهم تعدد الجبهات التي تقف في مواجهة العولمة من تيارات تقليدية وحداثية، دينية وعلمانية، حيث تشن الحملات على العولمة تحت مسميات وشعارات متنوعة كالحفاظ على الهوية وحماية الثقافة والخصوصية..

ومن هنا لابد في نظره من زاوية جديدة للنظر إلى العولمة، فلا بد من النظر إلى الظاهرة ليس كنموذج يجب إتباعه، بل كإمكان متاح أو كفضاء وأفق، فمثلما لم نعتبر الحداثة نغيا للتراث، بل قراءة عصرية وحية له، ومثلما لم نعتبر العالمية نغيا للخصوصيات، فكذلك العولمة يجب أن لا ننظر إليها على أنها فقدان للهويات، فهذا لا يكون إلا عند أصحاب الثقافة الضعيفة والدفاعات الفاشلة الذين يلقون أسلحتهم أمام الحدث وإن رفعوا شعار المقاومة. ومن هنا لابد من أن يسعى كل صاحب هوية وثقافة إلى عولمة هويته وثقافته، وأن يخرط في مسار العولمة بالمساهمة في إنتاج المعلومة الكونية وإدارتها، وكل هذا يعني أن التعامل مع ظاهرة العولمة لا يكون برفضها أو التصفيق لها، بل الحلّ كامنّ فقط في تشغيل العقول وإدارة الواقع وإثراء الثقافة،<sup>29</sup> وتحويل معطيات العصر إلى طاقات ومشروعات مثمرة.

### خاتمة:

لقد لاحظنا تنوعا واختلافا صارخا في تقدير تأثيرات ظاهرة العولمة على حياتنا المعاصرة وخاصّة على البعد الثقافي للإنسان، ومن اللافت أننا نجد معادين للعولمة من جميع التيارات وليس فقط من التيارات التي توصف عادة أنها محافظة. وهذا يدل أنها ظاهرة شديدة التعقيد والتشابك مع قضايا أخرى حساسة، ومنها قضية الهوية

الثقافية. والقول إنّ العولمة مؤامرة كبرى تستهدف الشعوب وتكتسح الثقافات المحلية، لا يخفّف من وطأتها وتأثيراتها، فهي سيل متدفق لا ينقطع، ولا يجدي معه التحويل ولا الانطواء، أمّا القول إنّنا لا بد أن نثبت ذواتنا من خلال الانخراط في سيرورة العولمة فهذا وإن كان جميلا وصحيحا من الجانب النظري، فإنه لا يأخذ بعين الاعتبار الهوة الكبيرة التي تفصل واقعا بين ما يعرف بالمجتمعات المتطورة والمجتمعات التي لم تتمكن من تأسيس نهضتها بعد. ومن وجهة نظرنا لا بد من الابتعاد عن كل توظيف إيديولوجي في التعاطي مع الظاهرة، والالتزام بالقدر اللازم من الموضوعية في دراسة قضاياها، فالهيمنة الثقافية لا تحمل في طياتها مشروعية ما، وهذا ما يؤكد ضرورة الرفع من مستوى الوعي الفردي والجماعي في التعاطي مع التغيرات التي تحصل في كلّ حين.

الهوامش:

- 1 محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، 1997، ص.139. وانظر أيضا: عبد الرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل، الايدولوجيا والحضارة والعولمة، الحداثق، مكتبة بستان المعرفة، ط.1، 2001، ص.221.
- 2 عبد الرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل، المرجع نفسه، ص.229.
- 3 الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص.139.
- 4 جورج طرابيشي، من النهضة إلى الردة، تمرّقات الثقافة العربية في عصر العولمة، بيروت، دار الساقى، ط.1، 2000، ص.163.
- 5 عبد الرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص.236-239.
- 6 جلال أمين، العولمة، القاهرة، دار الشروق، ط.3، 2001، ص.47.
- 7 ينظر لمزيد من التفاصيل: ميشيل تشودوفيسكي، عولمة الفقر، ترجمة مستجير مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012، ص.306.
- 8 الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص.140.

- 9 الجابري، مجلة فكر ونقد، العدد1، سبتمبر 1997، ص.16، 17.
- 10 المرجع نفسه.
- 11 هناك من يعود بالعلومة إلى عصور بعيدة، ويرى أن السوفسطائيين مثلا كانوا ينادون بمبادئ تطابق ما يردده الأمريكيون اليوم في ظل العولمة كمبادئ المنفعة والقوة و"الحق للأقوى"، ثم مع الإسكندر الأكبر الذي غزا الشرق وأراد أن يجعل فكر اليونان هو فكر العالم وثقافته، ثم مع روما أو الامبراطورية الرومانية..عبد الرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص.254، 255.
- 12 عبد الرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص.244.
- 13 مثل التدخل الدولي لحماية حقوق الأكراد والشيعية في العراق سنة1991، والتدخل الدولي في الصومال عام 1993. عبد الرحمن خليفة، المرجع السابق، ص.245، 330.
- 14 ينظر: محمود الريمحي، واقع الثقافة ومستقبلها في أقطار الخليج العربي، ضمن، الثقافة والمتقف في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، 1992، ص.268.
- 15 أنتوني سميث، نحو ثقافة عالمية؟، ضمن، ثقافة العولمة، القومية والعولمة والحدثة، تنسيق مايك فيذرستون، ترجمة عبد الوهاب علوب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص.164-166.
- 16 إبراهيم عزّي، ترجمة القرآن الكريم بين الدعوة والمثاقفة، ضمن، الترجمة وإشكالات المثاقفة، قطر، منتدى العلاقات العربية والدولية، ط.1، 2016، ص.336.
- 17 الراجي عبد الرحيم، مسألة الثقاف، [www.aljabriabed.net](http://www.aljabriabed.net) تاريخ التصفح 2018/09/29.

- 18 محمد وقيدي، "إشكالية الحوار ومدارات القيم الكونية": أسس اختلال التوازن في العالم المعاصر، ضمن، موقع الإسلام في القيم الكونية و حوار الحضارات، تونس، جامع الزيتونة، 2000، ص.7
- 19 محمد المصباحي، "بأي معنى يمكن أن يكون ابن رشد مدخلا لحوار الثقافات" ضمن، مع ابن رشد، المغرب، دار توبقال، ط.1، 2007، ص.31، 32.
- 20 الحبيب الجنحاني، "حوار الحضارات لماذا؟ وكيف؟ و مع من؟"، مجلة العربي، العدد 557، أبريل 2005، ص.16.
- 21 عبد الملك منصور حسن المصعبي، "حوار الحضارات المفهوم والمقومات" ضمن، موقع الإسلام في القيم الكونية، مرجع سبق ذكره، ص.20.
- 22 لحسن العقون، التثاقف الاستراتيجيات والآثار، ضمن مجلة علوم الإنسان والمجتمع، ع.9، مارس 2014، ص. 204، 205.
- 23 Jean-Pierre Warnier, La mondialisation du monde, Alger, Casbah édition, 1999, p.3.
- 24 مايك فيذرستون(منسق)، الثقافة العولمة، القومية والعولمة والحداثة، ترجمة عبد الوهاب علوب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص.3.
- 25 Jean-Pierre Warnier, La mondialisation du monde, p.3.
- 26 الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص.137.
- 27 محمود أمين العالم، جدل البدايات والنهايات، نقلا عن طرابيشي، المرجع السابق، ص.173.
- 28 علي حرب، حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، الدر البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط.2، 2004، ص.10.
- 29 المرجع نفسه، ص.13، 14.